

## قراءة في كتاب: مقاصد الشريعة

التشريع الإسلامي المعاصر بين طموح المجتهد  
وقصور الاجتهاد.

الكاتب: نور الدين بوثوري

الناشر: دار الطليعة - بيروت.

التاريخ: الطبعة الأولى ٢٠٠٠.

روميو عباس

لا ينقض الشك يقين القارئ، وهو يطالع هذا الكتاب، بأنه يقف أمام عمل فكري تتفاعل بين دفتيه العديد من الظواهر التي تنقشع بين الحين والآخر عن تجليات مقاصدية تركزها نظرية التشريع الإسلامي، مع تغذية ذاتية تكتسب حيويتها من محاور التماس التي تتقاطع فيما بينها وبين ميدان واقعنا المعاصر الذي يمثل بالنسبة لأصحاب الفكر المقاصدي ساحة تحد، يتقابل فيها الحرام مع الممنوع والحلال مع المسموح، الأمر الذي يزيد في تأجيج دينامية المواقفة ويقدم بالنسبة إليهم المبررات الكافية لأن ينفخ في الأحكام روح مقاصدية من شأنها محاكاة الحياة والحدادة بالمنطق الذي لا تفقد فيه الفكرة مواءمتها لمقتضيات واقعنا المعاش، وملاءمتها لروح الأصالة التي لا يُضنُّ بها في هذا الإطار، طالما أنها ترسم حدودها وفق الخريطة المقاصدية، في ظلال التشريع الإسلامي.

فهذا الكتاب الذي يأخذ منحى المقارنة جعله مؤلفه نور الدين بوثوري محكاً لدراسة علمين بارزين يعدان من أبرز المنظرين لعلم مقاصد الشريعة، بل امتداداً للشاطبي - بحسب ما يرى بعض النقاد - الذي يعد إماماً في هذا المجال، وهما الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، بتسليط الضوء على كتابه (مقاصد الشريعة الإسلامية) والشيخ علال الفاسي بتسليط الضوء أيضاً على كتابه (مقاصد

الشريعة الإسلامية ومكارمها).

وكتاب بوثوري هذا الذي ينقسم إلى أقسام أربعة رئيسية، حاول مصنفه أن يفصله فيها عنصري التدرج والتكامل بدءاً من فصله الأول الذي استهلّه بتعريف الكتابين وموضوع الدراسة، مروراً بعمليات بسط للأسس النظرية المبني عليها كلا المشروعين كما هو الحال في الفصل الثاني، مع عرض للجوانب التطبيقية لتلك الأسس النظرية، في الفصل الثالث، وصولاً إلى الفصل الأخير الذي أراده تقييماً يقف فيه على حدود الموضوعية لاستصدار حكمه النهائي كنتيجة لما تقدم من دراسته.

القراءة في كتاب بوثوري لها سمتها الخاصة؛ لأنها تمثل في الوقت نفسه نسبة بين قراءتين، الأولى وهي التي وقعت من القارئ، والثانية وهي التي ترشحت من محتوى الكتاب، لتكون النتيجة تحول القارئ إلى مجمع تتقاطع فيه خطوط كتب ثلاثة، وتبرز خلاله مادة شاملة هي خلاصة تعدد الأساليب، وزوايا تناول هذا الموضوع الواحد. حاول المؤلف أن يبرز أهم النقاط التي تميز بها خطاب العلمين المذكورين، إيماناً منه بأهميتها، ومدى ما تحويه من مكان حساسة تجعلها تتحول إلى حاجة ماسة، يجد تحت تأثيرها أن من واجبه كما هو واجب أي باحث جاد، أن يستجلي ما فيها من عوامل ومفاعيل قد تحتّمها هكذا بحوث، فيصدر فصوله بالحديث عن باب الاجتهاد، وحاجته إلى تحكيم مسلك المقاصد فيه، بعدا إبرازه لاعتقاد العلمين بعدم كفاية أصول الفقه بمفردها لسد حاجات العملية الاجتهادية، بعد اتساع دائرتها نتيجة لتعقيدات الحياة التي تبررها المتغيرات الكثيرة الطارئة في مناخ الإنسان المعاصر، ثم ينقل كلاماً عنهما يؤكد فيه أن تأسيس علم المقاصد لا يكون بمعزل عن أصول الفقه بل باستصفائه منها، وذلك يبرز عند نقله لكلام

ورد في المقدمة - عدم إشباع ابن عاشور بالدراسة والبحث، في مقابل الفاسي الذي نال من ذلك حظاً وافراً، فاذا به يلتحق بركب القوم في هذا المجال.

وهكذا نجد أنه يمضي في دراسته مستعرضاً للمعالجات المقاصدية المتعددة، ومبنيّاً حتى لأراء النقاد إلى أن خلص في فصله الأخير إلى اعتبار أن التفكير المقاصدي قد أحدث مع الشاطبي خاصة نقلة عامة في تاريخ الفقه والأصول، متكئاً على أقوال بعض المتحمسين للمقاصد الذين يعتبرون أنها العلم الذي سوف يساعد دون ريب في إيجاد الطرق الناجعة لحل المشكلات المطروحة، خصوصاً تلك المتعلقة بواقعنا المعاصر، والتي لم تضنّ عليه بتوجيه تحدياتها الكبرى على أكثر من صعيد.

وهو إذ يخلص إلى ذلك لم يغفل عن طرح تساؤلاته في مدى ما تحقق من أهداف الفكر المقاصدي، خصوصاً أن أيّاً من المشاريع مهما كان مقنعاً، فإنه يبقى رهينة في حيزه التطبيقي لتوافر ظروفه الموضوعية.

ولهذا نجد أنه قد ذيل فصله باستعراضه لدعوات كل من ابن عاشور والفاسي والتي تمخضت من قراءته لهما، فيسارع في نقل ما أوردها في قضية الاجتهاد من ضرورة فتح باب الاجتهاد، رغم أن حرية الاجتهاد ليست مضمونة دائماً - كما اعتبر هو في تعليقه عليهما - ولم يغيب السمات التي تميّزت به دعوى ابن عاشور الذي كان أكثر تحفظاً في ذلك من الفاسي، فأبرز التزامه بمسائل الفقه الكلاسيكي عند التطبيق مع تحرره نسبياً من سلطة المذاهب، وذلك حين قرر أن المقاصد تغني عن الأصول، معللاً جراته في ذلك بما ركز عليه المصلحون عامة، والمتدينون خاصة أمثال محمد عبده وتلاميذه، وفي مقابل ذلك طفق يجرّ قلمه للحديث عن دعوة الفاسي التي برزت فيها مظاهر تحرره بأجلى صورها،

ابن عاشور الذي أورد فيه: «فنحن إذا أردنا أن ندون أصولاً قطعية للتفقه في الدين، حق علينا أن نعلم إلى مسائل أصول الفقه المتعارفة، وأن نعيد ذوبها في بوتقة التدوين...».

ثم يعرج في بحثه على ما يراه بارزاً من مادته التي يروم استقصاءها، فيتناول مقولتي المقاصد والمصالح مبرزاً العلاقة العضوية التي تجسدت بينهما من خلال تواترهما في ما قرأه من الكتابين - محور بحثه - وقد اعتبر المقصد بمثابة الإطار التشريعي أو الحكم الشرعي الذي يعد بمثابة الوضع القانوني، في حين اعتبر أن المصلحة هي مادة المقصد ومجال فعله، ثم يعمد بعد ذلك إلى الحديث عن مقولة المقاصد في الميزان التطبيقي، منتقلاً بين معالجات عديدة لمسائل مستخرجة من تراث فقهي، لكن بطبيعة دراسة جديدة، تنكئ على أساس المقاصد لا على أساس العلل الفقهية المتعارف عليها، الأمر الذي اعتبره بارزاً عند ابن عاشور أكثر منه عند الفاسي، وبين المعالجات السياسية التي تميّز بها الفاسي الذي ربط ربطاً عضوياً بين الحكم والإيمان، والسياسة والدين، باعتبار أن الإنسان متى ما اقتنع بأن للكون رباً، فستؤدي به قناعته لا محالة إلى اعتباره الحاكم الحقيقي في الكون، ولم يغيب عنه استبتيان علة بروز الفاسي عن ابن عاشور في ذلك، بذكره لمحاولة ابتعاد الأخير عن الخوض في السياسة في نفس الوقت الذي لم يخرج فيه عن حدود الأحكام السلطانية - بحسب بوثوري - ومن خلال إبرازه لهذه الجنبية العملية أخذت تتبلور الصناعة المقاصدية بأجلى صورها في أكثر من ميدان، كالعدل، والمساواة، والحقوق، والحرريات. وتصدر الإشارة هنا إلى وقوع المصنف تحت تأثير الفاسي الأمر الذي خلت أنه سيفر منه، بعد جعله ذريعة له للخوض في هذا البحث بهدف تحاشيه، وبعبارة أخرى لقد رأى بوثوري أن من دواعي هذا البحث - كما

خصوصاً عند انتقاله بالفقه إلى ميادين لم يألفها إلا القليل، ففي السياسة على وجه الخصوص يدخل في قضايا لم يعرفها التاريخ الإسلامي قبل القرن الماضي، وفي باب الاجتهاد الأصولي يبرز موقفه من الإجماع، بإجازة نسخ أحكامه بالمقاصد، بعيداً عن نطاق علاقته بالقرآن والسنة، ثم تحدث بوثوري عن الأصل الذي تمسك به الفاسي المسمى بـ (أمر الإرشاد) والذي زعم الأخير أنه من ابتكاره، مبدياً رأيه بأهميته من جهة استتبعاته المنطقية، خصوصاً أن الفاسي قد استند إلى أصله هذا ليصرح في الجملة بمصاحبة البعد البشري لكل فعل تشريعي.

وهناك أهداف أخرى نقلها بوثوري متمخضة من مشروعيهما، مثل تقليل الاختلاف بين الفقهاء، وإقامة المجتمع على أساس ديني، وغيرها من الأهداف التي ينضوي تحتها العديد من التفريعات التي ما بخل عليها المصنف من إعمال نقده في بعضها. وبعد هذا العرض الذي حاول من خلاله الإجابة عن مدى تحقق أهداف الفكر المقاصدي في ذلك الكتابين - محور دراسته - ينتقل إلى الحديث عن مدى أهلية التفكير المقاصدي لتحقيق هذه الأهداف، معترفاً بعسر الخوض في هذه المهام لكونها تخاطب مسلماً من نوع جديد، من أخص مميزات اثنتان، الأولى انتمائه إلى واقع حضاري مختلف جذرياً عن واقع أسلافه، الثانية أنه استبدل بعقله الوثوقي الموروث عقلاً استفهامياً نقدياً، عصياً على الترويض، الأمر الذي بحسب ما يراه بوثوري لم يكن غائباً عن بال ابن عاشور والفاسي اللذين حاول أن يرجحا لدى المسلم عقله الإسلامي الأصيل مع تغليب للفطرة عليه امتازت به محاولة الأول، على نقيض الفاسي الذي خصّ العقل بمساحة هامة في كتابه.

وفي الخاتمة يخلص نور الدين بوثوري إلى الحكم على ما قام به محمد الطاهر بن

عاشور وعلاّل الفاسي بعدم خلّوه من تباعد بين النظرية والتطبيق، أدى إلى إخفاق مشروعيهما معلاً ذلك بوجود عوائق منهجية في ذات العقل الفقهي الذي يصدر عنه الرجلان - بحسب تعبيره - وكلامه هذا وإن كان قد يواجه بما يمكن أن يعد نقداً له - على ما افترضه - من أن ما أثبتته العقل الفقهي من نجاعة وحيوية استطاع بهما أن يصمد قروناً في وجه التحولات التاريخية ينقد دعوى وجود عوائق منهجية فيه، إلا أنه يعود، فيرد ذلك بأن تلك النجاعة والحيوية إنما كانت نتيجة كون ذلك العقل هو الابن الشرعي للحضارة التي برز فيها، أما وقد انقلبت أسس الحضارة اليوم، فقد فقد شروط تحققه أو هو على الأقل في طريق ذلك، على ما يراه بوثوري. وبهذا يختتم الكتاب على ١٣٤ صفحة من القطع الصغير، فضلاً عن صفحات سبع أخرى تشتمل على قائمة المصادر والمراجع والفهرست ليكون المجموع ١٤١ صفحة.

ومعه تنتهي قراءتنا لهذا الكتاب لارتهاها به بقاء. ونخلص بدورنا إلى أن بوثوري في كتابه (مقاصد الشريعة) قدّم لنا قراءة تجاوزت كونها كذلك لتطرح نفسها كمنظر بالأصالة لفكر علمين بارزين من أعلام الفكر المقاصدي، وبالنيابة عن نفس ذلك الفكر، وهذه نقطة تسجل في رصيده، بالإضافة إلى نقاط أخرى أنتجها الشكل، واستيفاء الشرح، وأهمية المضمون، ولكن من حقنا التساؤل أيضاً إنه بهذا الكتاب هل حقق فعلاً ما أراد منه، من جعله إسهاماً مهماً في حل عقدة الخوف من المجهول التي استبدت بنا بحسب تعبيره؟ وهل استطاع أن يكشف به عن الحدود الفاصلة بين الحقيقة والوهم؟ هذا ما يبقى الجواب عليه مرهوناً بقارئه، معلماً بناقديه، وإلى ذلك الحين لن نشك في أنه إسهام مهم في استجلاء فكر لقطبين بارزين من أقطاب الفكر المقاصدي.